القوافل

مع هؤلاء العشاق اجتمعنا، هذه المرة فى الواحة.

وربما هناك نلتقى غدًا مع غيرهم، فى رحلات أخرى مقبلة، هربًا من جدب الصحراء اليومية المحيطة بنا، ومن هجيرها نتقى.

ولكن الجدير بالذكر أننى أرشدتك، يا قارئى، اليوم إلى واحتى، كى تلوذ بها، وتحتمى.

عرَّفتك بمكانها، ولن تجد بعد ذلك صحراء الحياة بالخواء الذى كانت عليه، من قبل أن تعثر، وأعثر أنا، على واحة الألوان والظلال، ومن نبعها ارتوينا، وفى ظلها حططنا الرحال، واسترحنا من وعثاء السفر.

* * *

إنما الفن واحة، ينعم بها على المختارين من العباد، أصفياء القلوب، الذين أزيل عن عيونهم القذى، وانزاحت عن بصائرهم الغشاوات، التى أسدلتها عواصف الرمال المحاصرة للقوافل التى تمضى عبر القفار تشق طريقها تنوء بأحمال الحياة، وهمومها.

تنفسنا الصعداء وألقينا الأحمال عن كواهلنا هنيهة، وهانحن نعود تتهيأ من جديد لاستقبال الأعباء والمسئوليات.

سوف تسألنى «أين تقع على وجه التحديد واحتنا؟ وكيف السبيل إليها؟»

وأقول لك: «إنها أقرب إليك من حبل الوريد، يا صاحبى، وألصق بك من جلدك، يا قارئى».

إنها تحت جفنيك، اغمضها، سوف تلوح لك ظلال نخيلها، وتهب إليك نسماتها، وتسمع أغاريد الغدران والينابيع.

حذار فحسب من السراب، فهو أيضا براق وجذاب مثل واحتى، ولكن الفرق كبير بين الزيف والحقيقة.

وإذا زلزلتك الحياة يومًا ببريق ثرائها، وبهرج محافلها، وباطل أمجادها، فاذكر قصيدة صغيرة لواحد ممن عرفوا جنة العشاق قبلنا يقول فيها:

«النخلة الوحيدة التى تلقى ظلها على بحور الرمال الضاربة فى الصحراء، هى لى - كلها لى!

ظلها الذى إما أن يطول ممتدا إلى الغرب عندما تولد الشمس فى فرح، وإما أن يستدير من حولها عندما تتبوأ الشمس عرشها مطمئنة وسط السماء، وإما أن ينبسط نحو الشرق ساعة أن تموت الشمس فى حزن - ظلها لى . كله لى.

ثمرها ينضج لى، لى وحدى.

كم يشقينى قصور الكلمات عن أن أقول شيئًا أكثر مما تقوله مجرد هذه العبارة: «السعادة صغيرة، لكنها كلها لى».

* * *

وفى الختام، وقد تأهبنا للانصراف، ومضينا شرقًا وغربًا نتفرق، لا تقل وداعًا، بل قل إلى لقاء، ياواحتى.